Ø×ÝÚ×Ö ÙÜÏ ýÝ Ý×ÏÏ ý: ÇÖÜÙÏÑÜÇ ÙÝÚ×Ö ÙÜÏ ýBÑÑhtÙýÇhØÝÙý

م. م. خميس محمد حسن
كلية الادارة و الاقتصاد
جامعة الانبار

:ÇÖÜÙÏÑÜÇ

لو تفحصنا الظروف التاريخية التي نشأت فيها الماركنتيلية ، أوجب علينا الاعتراف بأنها ادت المهمة الواجب عليها تأديتها، وقامت بدور تقدمي مشهود. فمن خلال تحقيقها لمصلحتها في التراكم الاولي لرأس المال (الذهب والفضة) داخليا وخارجيا قد وحدت السوق الداخلية ، وحددت الاهداف الاساسية للتوسع الرأسمالي الخارجي ، وخلّصت الابحاث الاقتصادية من الطابع الديني والاخلاقي ، وأقامت سلطة مركزية وأكملت مسيرة التطور القومي في أوروبا الغربية ، واسهمت (ومن خلال اهتمامها بالنقود) في خلق البنوك الاوربية وتوسيع نشاطها الائتماني ، وقد كان لذلك كلّه اثر في نشوء وتقوية اسس النظام الرأسمالي، والايذان بانتقال اوروبا من مرحلة الاقطاع الى مرحلة الرأسمالية . وهي وان لم تصل الى جعل علم الاقتصاد علما مستقلاً ، إلا أنها (في الواقع) عكست تلك المحاولات الاولى لتغيير بعض الظواهر الخاصة بالرأسمالية في عهدها الاول ، عندما كان رأس المال التجاري والربوي مهيمنا على التجارة والقروض، وان خطواته الاولى قد بدأت في الصناعة من خلال تأسيس نظام المشاغل .

وبهذا تكون الماركنتيلية قد مهدت الطريق وهيأت الاجواء المناسبة للباحثين اللاحقين ليقوموا ببناء أسس وقواعد المراحل اللاحقة من الرأسمالية .

وتأسيساً على ما تقدم تم تحديد فرضية البحث وهدفه.

:ÜÜ ÙÝÇÚÙ

اثبات إن ولادة النظام الرأسمالي في قلب المجتمع الاقطاعي واعتماد تراكمه الرأسمالي الاولي على الاسواق الخارجية يستند الى تلك الافكار والسياسات الاقتصادية الماركنتيلية ذات الاساس المادي.

:ÜÜ ÙÝÇÙ×Ö ÑhU

إن الماركنتيلية مهدت لتحقيق الشرطين الاساسيين اللذين كانت تستلزمهما المؤسسات الرأسمالية الكبرى. وهما : تراكم رأس المال النقدي (الاولي) من جهة ، وتوفر العمال الاجراء (أي التكوين التدريجي للطبقة العاملة) من جهة أخرى . وبلقاء هذين الشرطين في مرحلة انتقالية نشأ لأول مرة في التاريخ اسلوب للانتاج الرأسمالي .

وانطلاقا من فرضية البحث وتحقيقاً لهدفه ولغرض عرض الموضوع بشكل متسلسل ، قسّم البحث الى ست أقسام رئيسة هي :

أولا: معنى الماركنتيلية واسباب نشوئها وفتراتها التاريخية وأفكارها العامة.

١- معنى الماركنتيلية :

٢- اسباب نشوئها .

٣- فترتها التاريخية .

٤- أفكارها العامة.

ثانيا: الخلفية الاجتماعية للماركنتيلية .

ثالثا: دور الماركنتيلية في التراكم الرأسمالي الاولي.

١- استغلال المروحة السكولائية لسماحات الربا.

٢- العمل باتجاه توسع وازدهار التجارة.

أ-رسملة تجارة الرقيق.

ب- قيادة الاكتشافات الجغرافية .

ج-المساهمة في بناء الدول القومية .

رابعاً- الماركنتيلية بلورت المبادئ الاولية لعلاقات اوروبا الدولية.

خامسا- دور الماركنتيلية في تفكك وانهيار النظام الاقطاعي .

١- انشاء المشاغل اليدوية (المانفاكتورات) .

٢- انشاء المشروعات الزراعية الرأسمالية.

الخاتمة.

[illegible]

لقد عرف الاقتصاد الاوروبي تقدما واضحاً ابتداءاً من القرن السادس عشر . وقد رافق هذا التقدم ميلاد وتطور نظام جديد هو النظام الرأسمالي . وقد مرّ هذا النظام خلال فترة تطوره بمراحل مختلفة ، وكانت الماركنتيلية اولها ، فما معناها ، وما اسباب نشوئها وما هي الفترة التاريخية التي سادت فيها.؟

١- <u>معنى الماركنتيلية :</u>

هي تعبير ورد في كتاب ادم سمث (ثروة الامم) وتبين أنه يشير به الى تلك الاراء والسياسات الاقتصادية التي طرحها الكتاب والساسة والاداريون في الفترة التي سبقت نشر كتابه أعلاه ، وقد سماها بالنظام التجاري او الماركنتيلي.[١]

أو أنها تعني ذلك التيار الجديد من الافكار الاقتصادية التي ظهرت في اوروبا في بداية القرن الخامس عشر وقد اطلق عليه مؤرخو الفكر الاقتصادي اسم مدرسة التجاريين والذي لم يكن نتاجاً فكرياً لاقتصاديين متخصصين فقط ، بل اشترك معهم في صياغته سياسيون ورجال أعمال ، وانه لم يتكون دفعة واحدة ، أو في بلد واحد ، بل امتد امداً طويلاً ، وفي بلدان اوروبية عديدة. فكانت اراء هؤلاء الكتاب والساسة والاداريون تعبير عن مصالح بلدانهم وظروفها الخاصة. [٢]

أو أنها تعني ((دولة موحدة مركزة السلطة وهدف موحد ذلك هو الاطار العام ، والسبل المختلفة التي تلجأ اليها الاولى لتحقيق هدفها هي التي اعتبر تسميتها بالمذهب والسياسة التجارية)). [٣]

٢- <u>اسباب نشوئها :</u>

حدث جدال عميق بين الاقتصاديين حول اسباب نشوء الماركنتيلية ، فبعظهم يعزيها الى اسباب داخلية واخرى خارجية ، وان العوامل الداخلية تشمل (ثراء التجار ، ظهور الدول الملكية المطلقة) أما الالعوامل الخارجية فهي : (الاكتشافات الجغرافية ، ارتفاع الاسعار، الاصلاح الديني، حركة الاحياء، والنهضة) .

---

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

(٣) [illegible]

والبعض الاخر يرى اثر العوامل النفسية والروحية في عملية التحول الاجتماعية ، إلا أنهم يعزون جميع العوامل المادية التي ساعدت في نشوء الماركنتيلية الى مظاهرها النفسية وهي: (حب الذهب والفضة ، المخاطرة ، المعقولية ، الروح الفردية، روح الدقة الحسابية . . . الخ) .

بينما اقتصاديون آخرون يقسمون اسباب النشوء الى اسباب غير مباشرة وهي (الاصلاح الديني ، الاحياء ، نشوء الدول القومية الحديثة ، الروح الفردية) ، بينما الاسباب المباشرة هي (ظهور الاقتصاد التبادلي ، تطور التجارة ، استعمال النقود ، تطور المصارف، اكتشاف مناجم الذهب والفضة ، حركة التسييج ، ظهور المنافسة ، ارتفاع الاسعار العام ، نظام الضرائب الحديث ، نشوء الامم الحديثة ، النظام الملكي المطلق) .

ورأي آخر يرى في (الثورة التجارية) أي تراكم النقود لدى التجار (والثورة السياسية) أي ظهور الملكيات المطلقة و (الاكتشافات الجغرافية) ، وما نشأ عنها من نظام الاستعمار، اسباب مهمة لنشوء الماركنتيلية .

وأخيراً يرى آخرون أن أسباب نشوء الماركنتيلية يرجع الى تطور الانتاج السلعي البسيط الى انتاج راسمالي ثم دور الرأسمالي التجاري في تفكك الاقتصاد الطبيعي ومساهمته في ظهور الانتاج الرأسمالي. وما العوامل المختلفة – الاقتصادية ، السياسية، الاجتماعية - التي بحثها الأكاديميون والمؤرخون إلا العوامل التي ساعدت على تحقيق هذين السببين.

٣- فترتها التاريخية :

يمكن ان تكون الفترة الممتدة بين ١٤٥٠-١٧٧٦م هي الفترة التقريبية لبدء نشوء وسيطرة الماركنتيلية .[١]

وقد عدعام ١٤٥٠ تاريخ تقريبي للبداية ، لأن عام ١٤٥٣ كان تاريخ سقوط القسطنطينية بيد العثمانيين والذي أثر بأوضاع اوروبا باتجاهين : الأول- انتقال التراث الاغريقي الى ايطاليا ومنها الى اوروبا فأثر في أوضاعها كثيراً وأفرز ما سمي في حينه بعصر النهضة ابتداءً من احياء التراث الاغريقي والروماني في الفلسفة والقانون والاداب ، الى سيادة العقل والنزعة الانسانية . والثاني- قطع طريق اوروبا التجاري مع الشرق ، ونظراً لأهمية هذه التجارة في حياة الاوروبيين جعلتهم يبنون الاساطيل الضخمة ويرسلون البعثات الاستكشافية التي رعتها الحكومات القومية الناشئة للتفتيش عن طريق جديد يوصل اوروبا بكنوز الشرق المهمة خاصة في الهند . وقد اثمرت هذه الحملات عن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح.

---

[١] محمد عبد الشفيع / قضية التصنيع في اطار النظام الاقتصادي العالمي الجديد / دار الطباعة / بيروت– لبنان/ الطبعة الاولى ١٩٨١ ٥٦ ٥٧ .

أما عام ١٤٥٦ فكان بداية التوسع الخارجي واقامة المستعمرات خارج اوروبا حيث استولى البرتغاليون على جزر الرأس الأخضر في افريقيا واعتبرت بداية امتداد اليد الاوربية الى القارة الافريقية واتساع وتطور تجارة العبيد.

أما عام ١٧٧٦ فقد وقع فيه حدثان مهمان كانا ينبئان بظهور مرحلة جديدة من التطور الرأسمالي : الاول – ظهور الآلة التجارية ، مما أدى الى تغيير مصادر الطاقة المستخدمة في تحريك الآلات أذ استخدم الفحم مصدر للقوة محل قورة (الانسان / الحيوان / المياه/ الرياح) ، وهي مصادر القوة التقليدية ، والذي عجزت طبقة التجار عن مواكبته . الثاني- ظهور كتاب آدم سميث (ثروة الامم) والذي أشار فيه الى ظهور مبادئ وسياسات اقتصادية جديدة تقوم على المذهب التحرري وجوهره حرية العمل والمرور والتجارة.

٤- افكارها العامة:

إن الكثير من الكتاب والمحللين الاقتصاديين الذين اهتموا بدراسة المراحل الاولى لنشوء الرأسمالية وان اختلفوا في تحديد معنى وجوهر المركنتيلية ، إلا أنهم اتفقوا جميعاً على وجود افتراضات مشتركة لدى المركنتيلين استندت اليها جميع السياسات والآراء المركنتيلية وهي تشكل اساس الإطار الفكري لهذا المذهب ، ومن هذه الافتراضات:(١)

١- ان المركنتيلية هي مجموعة من الآراء والسياسات الشمولية التي تعالج الواقع الاقتصادي للأمة أكثر مما تعالج المشاكل الاقتصادية على مستوى الظواهر الاقتصادية الجزئية ، وهذا ما يضعها في سياق الافكار الرأسمالية المعاصرة خاصة الكنزية .

٢- ان السياسات المركنتيلية هي سياسات ديناميكية لأنها تبحث في واقع متغيرمثل : التجارة ، السكان ، التصنيع ، وتضع لها الضوابط اثناء حركتها. بعبارة اخرى انها لم تنطلق من قوانين نظرية ثابتة وانما وضعت معالجات عملية لظواهر متميزة.

٣- ان جميع السياسات المركنتيلية تدعو بالدرجة الاولى الى تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية ، وان الخلاف الوحيد بينهم هو الاسلوب والواجب دعمه من قبل الدولة ، فقد اختلف المركنتيليون هنا في تحديده باختلاف دولهم أذ عبر كل منهم عن الظروف الاقتصادية الخاصة والمناسبة لاوضاع بلده في تلك المرحلة . وعموماً فقد كلفت السياسات الحمائية الشعوب الاوروبية كثيراً لما ولدته من صراعات مسلحة في الداخل والخارج . ففي فرنسا مثلا كلفت هذه الصراعات الشعب الفرنسي (١٦٠٠٠) قتيل للفترة ١٦٨٩-١٧٥٩ .(٢)

٤- ان جميع المركنتيليون عدو التجارة هي العمود الفقري للنشاط الاقتصادي.

---

(١) ا.د. قدري حسين ، مصدر سابق ، ص ٢٣ .

(٢) Oliver Twist , Op. Cit , P. 38 .

٥- ان للنقود دوراً حيوياً في الحياة الاقتصادية ، اذ ان زيادة كمية المعدن النفيس تحدث اثاراً باتجاهين : زيادة الاسعار لدى البعض ، وتخفيض سعر الفائدة لدى البعض الآخر، وهو في الاتجاهين يزيد من ثروات فئة التجار.

٦- ان جميع الماركنتيليين دعوا الى القومية المتطرفة والدولة المركزية لأنها ومن خلال التوسع الافقي تحقق لهم فرص الحصول على اسواق واسعة.

٧- انهم دعوا الى زيادة السكان لغرض زيادة عرض العمل وبالتالي انخفاض الاجور التي تشكل جزءاً مهماً (في تلك المرحلة) من كلفة الانتاج من جهة ، ثم توفير الاعداد اللازمة من الجنود لبناء الجيوش وهي الوسيلة المهمة في التوسع الخارجي وبناء المستعمرات من جهة اخرى وقد كتب (ماندفيل) الفيلسوف الهولندي المقيم في انكلترا ما يلي : ((من أجل سعادة المجتمع . . . يجب الاحتفاظ باعداد كبيرة من الناس في حالة من الجهل والفقر معاً)).(١)

[illegible] :

يتميز الوضع الاجتماعي الاوروبي في العصور الوسطى بوجود ثلاث قوى اجتماعية متصارعة هي طبقة النبلاء ، والطبقة الوسطى ، والكنيسة، وكانت هذه القوى الثلاث تعكس مصالح اجتماعية متمايزة . كانت الطبقة الوسطى تنمو وسط هذ الاصراع باتجاهين:

الاول- ضم العديد من الفئات الاجتماعية مثل:

١- الكتاب والادباء الذين اخذوا يتخلون عن اللاتينية لغة الكنيسة ويستكشفون لهجات محلية عرضوا من خلالها ادابهم وصارت فيما بعد اللغات القومية الاوروبية .

٢- الموظفين الحكوميين ورجال الاعمال وطوائف الحرفيين والذين قدموا مجموعة من العلوم العملية والوسائل المهنية في التحليل ، والتي أصبحت واحدة من أهم مصادر العلم الحديث في أوروبا خارج المؤسسات العلمية المتخصصة وهي الجامعات وخاصة المعارف الاقتصادية.

٣- اولئك التجار المتناثرين في حقل التبادل التجاري الداخلي والخارجي وخاصة مع الشرق وقد اتخذوا من التجارة مهنة لهم ، وقادوا من خلالها النشاط الاقتصادي في بلدانهم.

الاتجاه الثاني –بلورت مناخ فكري يستند الى تلك الترجمات العربية(٢) لمؤلفات ارسطو الاصلية والتي مع ترجمة النصوص اليونانية واللاتينية سماها الاوروبيون (بحركة الاحياء) والتي عكست ذلك النقد الشامل للمؤسسات العلمية وكذلك العادات والتقاليد . أما افكار السكولائيين وهم (اساتذة الجامعات) وخاصة رسالة توما الاكويني الاصلاحية ، فقد بلورت

( ) / ( ) [illegible] .

نوعاً من المرونة في تفسير تعاليم الكنيسة والتي سميت في أوروبا فيما بعد (بالاصلاح الديني) .

ان حركتي الاصلاح الديني والاحياء قد افرزتا تلك الثورة الثقافية والتي كان من نتائجها (العلم العلماني) و (المثقف العلماني).[١]

وهكذا تبلورت حركة فكرية (اقتصادية ، سياسية ، علمية) في اقاليم اوروبية محددة في مواجهة النبلاء من جهة وتعاليم الكنيسة من جهة أخرى.

وسط هذا المناخ الفكري نمت تلك الفئة الصاعدة من الطبقة الوسطى وهي (فئة التجار) والتي أعطت لمهنتها وما ملكته من ثروات نقدية كبيرة مدلولاً جديداً . بالاضافة الى أن النقود تمثل الشكل الاول للثروة ، قالوا كذلك أن تداول الثروة يشكل جوهر النشاط الاقتصادي وبهذا تكون قد خالفت تلك الصيغة القديمة لمفهوم الثروة النقدية.

وهكذا كانت فئة التجار هي الخلفية الاجتماعية للماركنتيلية الاسلوب خلال التجارة قادت النشاط الاقتصادي في عهدها .

.Ɛdʃll yƐdƟxuhqjfNʃHuqjƐhOƟBJNHYƟqjHYk- Yƞƞi

ان التجارة والربا فعاليات اقتصادية مارستها وفي كل الازمنة المجتمعات البشرية المختلفة . إلا أن المجتمعات الاوروبية عندما مارستها وخاصة في عهد الماركنتيلية احدثت في اوضاعها من التطورات الاقتصادية والاجتماعية مالم يحدث مثيلاً له في أي مجتمع انساني آخر . ويعود الفضل في ذلك الى تلك الفئة الاجتماعية الصاعدة من الطبقة الوسطى وهي (فئة التجار) من خلال مجموعة الافكار والسياسات الاقتصادية التي طرحتها فاثرت من خلالها في تلك الافكار والقيم التي كانت تحد من (الربا) وفتحت في الاتجاه الآخر سبلاً جديدة للتوسع التجاري .

١- استغلال المرونة السكولائية لسماحات الربا.

ان كلمة (ربا) كانت تعني في أوروبا في العصر الوسيط معنى عام هو المخالفة (للسعر العادل) ومعنى اضيق هو فوائد القروض. (والسعر العادل) هو المساواة بين قيم السلع المتبادلة وان النقود هي مقياس هذا التساوي ، وان (الانحراف) عن هذه المساواة زيادة أو نقصان هو السعر (غير العادل).[١]

إن تطور التجارة واتساع نطاق المعاملات النقدية زادت من عمليات الاقراض زيادة كبيرة ، وخاصة في أواخر العهد الاقطاعي ، فدفع ذلك بمفكري تلك المرحلة من (السكولائيين) الى ابداء نوع من المرونة في حالات معينة فيما يخص السماح في عدم المساواة (بالسعر العادل) وخاصة في مجالات الانتاج ومن هذه الحالات .[٢]

أ- خسارة المقرض من جراء الاقراض.

ب-ضياع فرصة ربح على المقرض بسبب الاقراض.

ج-اذا تغير موعد التسديد خلافا للاتفاق .

د- اذا تعرض المقرض لخطر عدم تسديد الدين.

هـ- حالة المشاركة بالربح والخسارة بين المقرض والمقترض.

و- حالات اخرى مثل : (نفقة نقل البضاعة الى الاسواق ، ادخال تحسينات على البضاعة ، تغير القيمة بسبب تغير الظروف ، الاخذ بنظر الاعتبار المركز الاجتماعي للبائع والمشتري، البيع بالتقسيط ، خصم الحوالات، وعمليات الاقراض الكبرى التي كانت تمارسها العوائل الصيرفية الشهيرة من اليهود في أواخر العهد الاقطاعي) .

ان تبريرات (السكولائيين) لحدود السماح بالانحراف عن السعر العادل مكنت فئة التجار من استغلالها لصالحهم ، مما يعني توسع فرص الائتمان والذي أتاح لهم فيما بعد انشاء

( ) / ( ) ə l ł ãX нкə 2l TãNbƆJHãƳ .

المؤسسات الرأسمالية المختلفة. ويعتقد (شومبتر) من أن هذا العامل بالاضافة الى المؤسسات والوسائل المصرفية التي رافقته كانت مهمة في نشوء اسس النظام الرأسمالي ، وان(مارشال)نسب ضعف الرأسمالية الفرنسية وقوة الرأسمالية الانكليزية الى هذا العامل.[١]

٢- العمل باتجاه توسيع وازدهار التجارة .

كان التاجر في المراحل الاولى لنشوء وتطور الرأسمالية يشكل العنصر الاساس في الحياة الاقتصادية ، وقد مكنه من ذلك مساهمته الفاعلة في ادارة وتنظيم بعض التطورات الجديدة التي طرأت على أوضاع المجتمعات الاوروبية ، والتي كان لها الدور المهم في تهيئة الظروف المناسبة التي ساعدت كثيرا على توسع وازدهار التجارة ، ومن هذه التطورات الجديدة:

أ-رسملة تجارة الرقيق :

اقتصر استخدام العبيد في القرن الخامس عشر على الاعمال المنزلية ، وكان التجار الاسبان والبرتغاليون هم أسياد هذه التجارة وخاصة الاسبان ، فصدر قانون في اسبانيا في بداية القرن السادس عشر يصرح لأول مرة للتجار الاسبان بممارسة تجارة العبيد البيض والسود على السواء وتصديرهم الى امريكا وكوبا، فزادت أهمية هذه التجارة حتى اصبحت تشكل عنصرا مهما في الاقتصاد الاسباني ، وكان الملك الاسباني هو المخول فقط باصدار تصاريح هذه التجارة ، فدرت عليه ارباح طائلة . إلا أن الملك (ولأسباب معينة) اجّر هذا الامتياز الى أغنياء التجار وقياطنة السفن ، وقد سمي هذا الامتياز (بحق شراء العبيد من افريقيا) وبيعهم في أمريكا ، وقد صار قاعدة وصارت التصاريح تمنح بعشرات الالوف .[٢] ومعها تغيرت اهداف هذه التجارة وخاصة في بداية القرن الثامن عشر أذ اصبحت هذه الاهداف رأسمالية وغرضها هو تغطية حاجة المزارع الرأسمالية الواسعة في أمريكا الى اليد العاملة ، فلم يعد الاسلوب التقليدي من هذه التجارة قادراً على تلبية متطلبات الحاجة في هذه التجارة ، فانتقلت الامتيازات من تجار النخاسة الى الشركات المتخصصة والتي اسست لهذا الغرض. فأسست شركة الهند الغربية ثم الشركة الافريقية السويدية واعقبتها شركات أخرى فرنسية وانكليزية منها شركة غييا الفرنسية والتي أصبحت متخصصة بتجارة العبيد، وحصلت على هذا الحق من ملك اسبانيا ايضا. وقد اجبرت انكلترا فرنسا في معاهدة الصلح التي عقدت بينهما في عام ١٧١٣ على منحها حق شراء العبيد . وبذلك اصبح لها حق المتاجرة بالعبيد ليس بين افريقيا وجزر الهند الشرقية البريطانية وانما الاتجار بين افريقيا وامريكا ايضا. وهكذا توسعت تجارة العبيد البريطانية ، ودليل ذلك هو تطور عدد السفن المستخدمة في

---

(١) [illegible] .

(٢) [illegible] .

تجارة العبيد في مدينة لفربول البريطانية وكما يلي : [١] (((١٥) سفينة كانت في ١٧٣٠ فاصبحت (٥٣) سفينة في ١٧٥١ ثم (٧٤) سفينة في ١٧٦٠ ثم (٩٦) سفينة في ١٧٧٠ واصبحت في عام ١٧٩٢ (١٣٢) سفينة)) . وكانت بريطانيا تنقل في سفنها سنويا وحتى عام ١٧٤٣ (٤٨٠٠) زنجي الى امريكا.[٢]

ان تجارة العبيد كانت جزءاً مهما من تجارة اوروبية ثلاثية تسير كما يلي: تأتي السفن من اوروبا محملة بالسلاح والخيول والمنسوجات وتبيعها في افريقيا مقابل العبيد بالدرجة الاولى والذهب والعاج ، ثم تقوم نفس السفن ببيع هؤلاء العبيد في أمريكا الوسطى والكاريبي مقابل شراء منتجات زراعية مثل (القطن ، قصب السكر، التبغ) ثم العودة الى أوروبا لبيع هذه المنتجات بثمن باهض جداً ويؤكد بازل دافيدسون ((ان انكلترا وفرنسا قد شادتا والى حد كبير تفوقهما التجاري على أساس من هذه الارباح الثابتة والضخمة لتلك التجارة المعقودة ، وان الرأسمالية التجارية في أوروبا الغربية ترجع في أحد أصولها الى تجارة السود ، كما كان العمل المجاني للعبيد أساساً لتلك الموجه الهائلة من تراكم الثروات في أوروبا)).[٣]

ب- <u>قيادة الاكتشافات الجغرافية:</u>

كان الايطاليون يشكلون حلقة الوصل بين تجارة الشرق ومناطق أوروبا الغربية. وأراد الاوروبيون الوصول الى تجارة الشرق دون وساطة الايطاليين. إلا أن فتح الاتراك للقسطنطينية في ١٤٥٣ وتوسيع سيطرتهم حتى شملت سواحل البحر المتوسط ادى الى قطع هذه التجارة ولأهميتها في حياتهم بدأوا يفكرون بطريق جديد يوصلهم الى الشرق وخاصة مع الهند. فأخذوا يبنون الاساطيل الضخمة ويرسلون البعثات الاستكشافية والتي دعمتها الحكومات القومية وبدأت بالتفتيش عن طريق جديد يوصل اوروبا بكنوز الشرق المهمة . وقد اثمرت هذه الحملات عن اكتشاف طريق بحري يمر عبر رأس الرجاء الصالح . ومن خلاله حقق الاوروبيون هدفين : الاول – الاتصال بالشرق ، والثاني – اكتشاف امريكا. وقد كان لهذين الاكتشافين اثاراً مهمة جداً في حياة المجتمعات الاوروبية منها تطور تيارات تجارية جديدة وانفتاح اسواق واسعة امام التجار الاوروبيون الذين بدأوا يشكلون الشركات التجارية الخاصة وبمساندة الحكومات القومية، فكانت بداية النشوء للامبراطورية الامبريالية الاوروبية والتي صارت البلدان الآسيوية والافريقية والامريكية من ممتلكاتها .[٤]

ان الاكتشافات الجغرافية افرزت الكثير من النتائج المهمة منها :

---

(١) ÇãÑÇÚÉ ÇáÚÈíÏ Ýí ãÏíäÉ áÝÑÈæá ÇáÈÑíØÇäíÉ æßãÇ íáí : (((١٥) ÓÝíäÉ ßÇäÊ Ýí ١٧٣٠ ÝÇÕÈÍÊ (٥٣) ÓÝíäÉ Ýí ١٧٥١ Ëã (٧٤) ÓÝíäÉ Ýí ١٧٦٠ Ëã (٩٦) ÓÝíäÉ Ýí ١٧٧٠ æÇÕÈÍÊ Ýí ÚÇã ١٧٩٢ (١٣٢) ÓÝíäÉ)) . æßÇäÊ ÈÑíØÇäíÇ ÊäÞá Ýí ÓÝäåÇ ÓäæíÇ æÍÊì ÚÇã ١٧٤٣ (٤٨٠٠) ÒäÌí Çáì ÇãÑíßÇ.

(٢) ÇáÚÈíÏ æÇáÐåÈ ÈÇÒá ÏÇÝíÏÓæä ((Çä ÇäßáÊÑÇ æÝÑäÓÇ Þã ÔÇÏÊÇ æÇáì Íã ßÈíÑ ÊÝæÞåãÇ ÇáÊÌÇÑí Úáì ÃÓÇÓ ãä åÐå ÇáÃÑÈÇÍ ÇáËÇÈÊÉ æÇáÖÎãÉ áÊáß ÇáÊÌÇÑÉ ÇáãÚÞæÏÉ ، æÇä ÇáÑÃÓãÇáíÉ ÇáÊÌÇÑíÉ Ýí ÃæÑæÈÇ ÇáÛÑÈíÉ ÊÑÌÚ Ýí ÃÍÏ ÃÕæáåÇ Çáì ÊÌÇÑÉ ÇáÓæÏ ، ßãÇ ßÇä ÇáÚãá ÇáãÌÇäí ááÚÈíÏ ÃÓÇÓÇ áÊáß ÇáãæÌå ÇáåÇÆáÉ ãä ÊÑÇßã ÇáËÑæÇÊ Ýí ÃæÑæÈÇ)).

(٣) ÇáÚÈíÏ æÇáÐåÈ ÈÇÒá ÏÇÝíÏÓæä ((Çä ÇäßáÊÑÇ æÝÑäÓÇ Þã ÔÇÏÊÇ æÇáì Íã ßÈíÑ ÊÝæÞåãÇ ÇáÊÌÇÑí Úáì ÃÓÇÓ ãä åÐå ÇáÃÑÈÇÍ ÇáËÇÈÊÉ æÇáÖÎãÉ áÊáß ÇáÊÌÇÑÉ ÇáãÚÞæÏÉ ، æÇä ÇáÑÃÓãÇáíÉ ÇáÊÌÇÑíÉ Ýí ÃæÑæÈÇ ÇáÛÑÈíÉ ÊÑÌÚ Ýí ÃÍÏ ÃÕæáåÇ Çáì ÊÌÇÑÉ ÇáÓæÏ ، ßãÇ ßÇä ÇáÚãá ÇáãÌÇäí ááÚÈíÏ ÃÓÇÓÇ áÊáß ÇáãæÌå ÇáåÇÆáÉ ãä ÊÑÇßã ÇáËÑæÇÊ Ýí ÃæÑæÈÇ)).

(٤) ÇáÚÈíÏ æÇáÐåÈ ÈÇÒá ÏÇÝíÏÓæä ((Çä ÇäßáÊÑÇ æÝÑäÓÇ Þã ÔÇÏÊÇ æÇáì Íã ßÈíÑ ÊÝæÞåãÇ ÇáÊÌÇÑí Úáì ÃÓÇÓ ãä åÐå ÇáÃÑÈÇÍ ÇáËÇÈÊÉ æÇáÖÎãÉ áÊáß ÇáÊÌÇÑÉ ÇáãÚÞæÏÉ ، æÇä ÇáÑÃÓãÇáíÉ ÇáÊÌÇÑíÉ Ýí ÃæÑæÈÇ ÇáÛÑÈíÉ ÊÑÌÚ Ýí ÃÍÏ ÃÕæáåÇ Çáì ÊÌÇÑÉ ÇáÓæÏ ، ßãÇ ßÇä ÇáÚãá ÇáãÌÇäí ááÚÈíÏ ÃÓÇÓÇ áÊáß ÇáãæÌå ÇáåÇÆáÉ ãä ÊÑÇßã ÇáËÑæÇÊ Ýí ÃæÑæÈÇ)).

١- نقل مركز الثقل التجاري من البحر المتوسط الى المحيط الاطلسي مما أدى الى بروز قوى تجارية اوروبية جديدة حلت محل ايطاليا وهي كل من اسبانيا ، البرتغال ، هولندا، انكلترا ، فرنسا.

٢- الربط المباشر بين أوروبا والبلدان المنتجة للسلع النادرة فأثر ذلك باتجاهين : الاول - نقل كميات كبيرة من هذه السلع حيث قدرت كمية الفلفل التي نقلها البرتغاليون من الهند (٢٦) الف قنطار .[١] الثاني- نقل الكثير من الحرف الصناعية الجديدة وخاصة صناعات النسيج .

٣- تدفق كميات كبيرة من الذهب والفضة من المناجم المكتشفة في كل من امريكا والمكسيك والبيرو والتي قدرت كمياتها بين عامي ١٥٣٣ و ١٥٦٣ بـ (١٠٠ ، ٢٠٠) مليون فرنك على التوالي .[٢]

٤- كانت النتائج المهمة لهذا التدفق الهائل للمعدن النفيس وحسب قاعدة العرض والطلب أن ارتفعت اسعار مختلف السلع ارتفاعاً حاداً حتى نقل عن هنري هاوس قوله : ((ان الطابع المميز للثورة الاقتصادية في القرن السادس عشر هو ارتفاع الاسعار)) .[٣]

٥- كانت بداية للتوسع الاوروبي الافقي الى البلدان الاخرى خارج اوروبا والتي رسمت اوضاع العالم على النحو الذي لاتزال تعرفه حتى اليوم .[٤]

---

١) ٠ ٠ ٠ .

٢) ٠ ٠ ٠ .

٣) ٠ ٠ ٠ .

٤) ٠ ٠ ٠ .

٦- بلورت بداية التنافس الاستعماري بين الدول الاوروبية .
٧- ساعدت على بناء القوى البحرية الضاربة للدول الاوروبية والتي كانت لها نتائجها في اختلال توازن القوى بين اوروبا والبلدان الأخرى.

ج- المساهمة في بناء الدولة القومية:

كانت في أوروبا في القرون الوسطى كما أسلفنا ثلاث قوى اجتماعية تمثل جوهر الصراع الاجتماعي والسياسي وهي : الكنيسة، والاقطاع ، والطبقة الوسطى . وقد تحالفت الأخيرة مع الملوك الذين أقاموا دويلات في المدن كانت تمثل معاني لغوية أكثر من كونها ذات مدلول سياسي واضح.(١)

تعاون التجار - وهم الفئة الصاعدة في الطبقة الوسطى – والملوك وكان لكل منهما هدف خاص به ، فالملوك ادركوا أن سلطتهم المركزية المطلقة لاتتم إلا بعد تصفية سلطة الاقطاع والكنيسة .

أما التجار فكان لهم هدف مزدوج . الاول- هو التأثير على سلطة الكنيسة التي كانت تعاليهما عائقاً أمام نشوء وتوسع الائتمان وهو شرط ضروري لتوسع النشاط التجاري .
والثاني- هو ايجاد سلطة قوية لها القدرة على فرض الأمن والاستقرار من جهة وتوحيد الاقاليم من جهة أخرى ، فتزيل الحواجز الكمركية وهي الشرط المهم لنشوء السوق القومية الواسعة . فكانت الغلبة في هذا الصراع الى تحالف الملوك والطبقة الوسطى بعنصرها القيادي الفاعل (فئة التجار) . وهكذا ساهم التجار في بناء الدول القومية الناشئة لكي يحققوا هدفهم الاساس وهو انشاء السوق القومية الواسعة ، وهذا هو الشرط المهم لازدهار وتوسع التجارة.

ان الملوك ولكي يؤكدوا سيطرتهم المركزية والمطلقة من ناحية وليحققوا لحلفائهم من التجار أهدافهم ، نفذوا مجموعة من الاجراءات العملية التي كان لها أثرها في تقدم وازدهار التجارة ومن ثم تراكم المزيد من الثروات لدى هؤلاء التجار . ومن هذه الاجراءات:

١- الغاء الحواجز الكمركية الاقليمية وابدالها بحواجز كمركية قومية مما أسهم في نشوء السوق القومية الواسعة.
٢- توحيد الضرائب والموازين والنقد .
٣- فتح الطرق البرية الداخلة ، وشق القنوات بين الانهار لتسهيل الملاحة والاتصال بين الاقاليم.
٤- المساهمة بشكل أو بآخر في تأسيس الشركات التجارية الكبرى التي تقوم بالاتجار مع البلدان الخارجية .

(١) [illegible].

٥- تشكيل الجيوش الثابتة وبناء الاساطيل البحرية الضاربة لتأمين وحماية قوافل التجارة الخارجية وبالتالي تأمين الحصول على المعدن النفيس مصدر قوة الدولة في مفهوم تلك الفترة وكذلك المنتجات النادرة.

٦- الهيمنة على الشؤون الاقتصادية بهدف تشجيع وزيادة الانتاج ومن ثم زيادة التصدير لغرض الحصول على المعدن النفيس.

٧- الفصل بين الدين والدولة اتاح للأخيرة حرية التصرف في الحياة الاقتصادية من خلال تحجيم دور الكنيسة . . ولاثبات تلك الحقيقة من جهة وتقديم الخدمة لحلفاء الامس من جهة أخرى ((حرمت الحكومة البريطانية تكفين الموتى بغير الاكفان الصوفية ، بالرغم من أن التقاليد الدينية كانت تقضي باستعمال الاكفان الكتانية وذلك لمجرد دعم المصالح الصوفية المتنفذة في انكلترا حينذاك)).[١]

٨- انتشار مبدأ القومية والذي أصبح الاساس في تصرفات الدولة على المستوى الخارجي.

٩- تبنت كل أمة لغة خاصة بها تميزها عن غيرها من الامم الاخرى .

وهكذا اندمج الشعور القومي بالسلطة المركزية بالاستقلال التام عن الكنيسة في ظل الرأسمالية التجارية ، فأفرز نظما اوروبية اقليمية كان لها اثرها على المستويين الاقليمي والدولي، انعكست مباشرة على الاوضاع الاقتصادية الاوروبية . واصبح لفئة التجار والملاحين من الناحية الاجتماعية والسياسية نفوذ كبير بعد أن تراكمت لديهم الكثير من الثروات وهكذا ((يعتبر ميلاد الامم القومية حدثاً كبيراً من الناحية الاقتصادية لأنه اخرج الاقاليم من عزلتها وأزال الحدود التي كانت تفصل بين اجزاء الامة فأدى ذلك الى اتساع رقعة الاسواق الوطنية والى الانفتاح الاجتماعي)).[٢]

---

(١) . Q'[illegible]e ⌈ t äX, HKe 2l TaNbCJHaY

(٢) . Oœe ⌈ t äX, HKe 2⌈ ƐxŸxgJKŸe UIlŷ/ YIaOY ¨ UU

ان أوروبا –وعندما كانت التجارة تشكل جوهر النشاط الاقتصادي فيها-كانت قد ارتبطت بعلاقات تجارية غير متكافئة مع بلدان خارج القارة الاوروبية تفوقها تطوراً من الناحية الاقتصادية[١] ، حيث تمتلك تلك البلدان الكثير من المنتجات النادرة والسلع المصنعة مثل: الشاي ، التوابل ، الاحجار الكريمة ، المعدن النفيس ، الانسجة . . الخ ، ((وان اوروبا ليس لديها شيء مهم تقدمه بالمقابل ما عدا المعدن الثمين الذي تجلبه من امريكا)) [٢]، وان نظامها الاقتصادي الجديد من شروطه الجوهرية هو ممارسة النشاط على المستوى الدولي.[٣] فإن أوروبا ارتأت ان السيطرة على البلدان الأخرى -ومن خلال القوة العسكرية الضاربة – هي العنصر المهم الذي يرجح كفتها في تلك العلاقة غير المتكافئة . فشرعت وفي ظل الرأسمالية التجارية تصوغ علاقاتها الخارجية مع العالم غير الاوروبي من خلال هذه المعادلة . أذ تحصل على احتياجاتها من السلع والمنتجات النادرة ((عن طريق التبادل البسيط القائم على النهب)) .[٤]

ان اسلوب وأهداف السيطرة الاوروبية على البلدان الأخرى في مرحلة المركنتيلية والتي استمرت قرابة الثلاثة قرون – وان اتسمت ببعض الخصائص المشتركة- فقد اختلفت نسبياً باختلاف الدول المسيطرة بسبب تباين مستويات تطورها الاقتصادي. ووفقا لذلك يمكن ان نميز فترتين لهذه السيطرة :

أ-الفترة الممتدة بين النصف الثاني من القرن الخامس عشر الى النصف الاول من القرن السابع عشر، وتميزت حركة التوسع الخارجي فيها بسيادة قوى أوروبية رئيسة هي: اسبانيا، البرتغال، وهولندا ، وهي دول لم تكن قواها الانتاجية قد تطورت الى الحد الذي يدفع بالطبقة الرأسمالية وهي (فئة التجار) الى قيادة حركة التوسع الخارجي ، وانما كانت الدولة ذاتها هي التي نظمت هذه الحركة مباشرة ولحساب الملك ومن خلال الحملات العسكرية تحت رعاية السفن المسلحة . وكان الهدف الرئيس منها هو

الحصول على المعدن النفيس مصدر قوة الدولة وهي الفكرة السائدة انذاك، اضافة الى الحصول على بعض المنتجات النادرة ، وكانت الاجراءات التي مورست هي كما يلي:

١- في افريقيا- اقامة مراكز تجارية محصنة وهي بمثابة وكالات تجارية تعمل لحساب الدولة ويديرها الملاحون والمقامرون وبعض التجار .

٢- في امريكا- واتسمت بما يلي :

أ-الهجرة من اوروبا للإقامة الدائمة فيها هربا من الاضطهاد والصراعات الطبقية.

ب- استغلال الموارد الطبيعية والمنجمية وخاصة الزراعة ومناجم الذهب .

ج- طرد السكان المحليين من الهنود الحمر والاستقرار مكانهم.

د- بقي المستوطنون تابعون الى دولهم الاصلية ولم يبدؤوا ببناء المجتمعات الجديدة.

٣- في اسيا – الاسلوب الذي اتبع في هذه القارة وخاصة الاسلوب الهولندي هو اقامة شركات تجارية تجمع التجار الهولنديين تحت رعاية الدولة . وكانت شركة الهند الشرقية الهولندية النواة الاولى.

ب- الفترة الممتدة بين أواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر شهدت تغيراتجوهرية تمخضت عن صعود قوى اوروبية جديدة على المسرح الدولي وهي كل من (بريطانيا وفرنسا) ليس بسبب تطور قواها العسكرية والبحرية الضاربة فحسب، وانما ايضا بسبب تطورها الاقتصادي الذي دفع بها الى البحث عن اسواق التصريف لبعض منتجاتها الفائضة من جهة والحصول على المواد الاولية لصناعاتها الناشئة من جهة أخرى . فانطلقتا فيما وراء البحار تعملان على نهب المنتجات الحرفية والزراعية والمعدن النفيس اضافة الى اقامة المزارع الرأسمالية في العالم الجديد (كمزراع القصب والذرة) وكانت فئة التجار هي الفئة الاجتماعية المنظمة والمسيطرة والقائدة لهذه الحملات التوسعية . أما الدول القومية فكانت راعية لهذه الحملات أكثر مما هي منفذة لها. وقد اتسمت عموما اجراءات التوسع في هذه المرحلة بما يلي:

١- صار بناء المستعمرات هو الاسلوب الجديد في السيطرة والاستغلال في جميع البلدان التي تم التوسع فيها . إلا أن هذه المستعمرات اختلفت اوضاعها وطريقة تنظيمها ووظائفها باختلاف المناطق.

- ففي افريقيا- كانت الى حد ما هامشية غرضها تجارة العبيد فقط.
- أما في اسيا- فقد اصبحت المستعمرات وسيلة من وسائل الاستثمار الرأسمالي وخاصة في الهند حيث صارت تخدم الورش الصناعية (المانفاكتورات) الانكليزية والفرنسية التي تملكها طبقة التجار.

- أما في امريكا- فقد اتخذ بناء المستعمرات وضعا مغايراً تماماً لما عليه الحال في آسيا وأفريقيا ، أذ اطلق عليه تمييزاً (الاستيطان القهري) [١]، أذ أبيد السكان الاصليين هذه المرة بدلا من طردهم (كما حدث في المرحلة السابقة) بسبب التوسع الى جميع المناطق الامريكية تقريبا ، بحيث لم تعد هناك مناطق يندفع اليها السكان من الهنود الحمر ، وللطرافة المأساوية نورد المعلومات التالية (وهي شهادة احدهم) والتي تظهر الطابع الاستبدادي لأجداد هؤلاء المدعين اليوم بتطبيق حقوق الانسان ومنها حقه في العيش الكريم ((في ١٧٠٣ كانت المكافأة (٤٠) جنيه لمن يجلد رأس أو يؤسر رجل من الهنود الحمر ، وفي ١٧٢٠ صارت (١٠٠) جنيه لمن يجلد رأس رجل من الهنود الحمر، وفي ١٧٤٤ كانت المكافأة كما يلي: (١٠٠) جنيه لمن يجلد رأس شخص من الهنود الحمر عمره (١٢) سنة و(١٠٥) جنيه لكل من يأسر ذكر من الهنود الحمر و(٥٥) جنيه لمن يأسر انثى أو طفل من الهنود الحمر و (٥٠) جنيه لمن يجلد رأس امرأة او طفل من الهنود الحمر))[٢]. أما الوضع القانوني للمستعمرات فقد اصبحت مجتمعات مستقلة عن البلدان الاصلية للمستوطنين.
- ٢- الوسيلة المستخدمة في ادارة المستعمرات في كل المناطق التي تم التوسع فيها هي الشركات التجارية، وكانت هولندية او انكليزية او فرنسية ، وكانت مواثيقها تمنحها حق ادارة المستعمرات في مجالات التشريع والدفاع حيث كان لها جيش واسطول وجهاز اداري خاص بها.
- ٣-كان الهدف من نظام المستعمرات هو خدمة مصالح الدولة المسيطرة المعبّرة اساسا عن مصالح الطبقة الرأسمالية المتنفذة في تلك الفترة وهي (طبقة التجار) ولغرض تطبيق ذلك كاملا تم تطبيق الاحتكار على هذه المستعمرات من قبل الدولة المسيطرة من خلال الضوابط التالية : [٣]

أ-لاتنقل سلع المستعمرات الا بسفن الدولة المسيطرة .

ب- ان تكون التجارة الخارجية مع المستعمرات عبر الدولة المسيطرة.

ج-منع الانتاج الصناعي المنافس لانتاج الدولة المسيطرة وكذلك منع تصنيع المواد الاولية التي تحتاجها صناعة الدولة المسيطرة

د- وقد أضاف الانكليز شرطاً آخر على مستعمراتهم وهو عدم استيراد سلع غير انكليزية .

- ٤- اصبحت التجارة مع المستعمرات منتظمة وثلاثية الحركة خلافا لما كانت عليه في الفترة السابقة عندما كانت محدودة ومتقطعة .

---

(١) U5B1e ┌ ł äĂ, нкə 2/ Dţhgjkaa .

(٢)]]]] ə ┌ ł äĂ, нкə 2– ΘZgjy ùн / ɣ ЊНŸΣΘнÑ .

(٣) UƠÚ" ə – ł äĂ, нкə 2/ Dţhgjkaa .

٥- توسعت تجارة العبيد لأن أهدافها في هذه الفترة اصبحت رأسمالية وهي حاجة المزارع الواسعة الى الايدي العاملة وتحولت تجارتها من تجار النخاسة الى الشركات التجارية المتخصصة.

:ƐƏŸBKl ýpÝÞtgŸHŸĐjÝ^ŸJNlŭƐhÚŸĐBŸNHŸĐgŸHÝk-ÎŸXƠŸk

ان تراكم الثروات لدى التجار من جهة وتوسع الاسواق الداخلية والخارجية وحاجتها المتزايدة للمنتجات المختلفة من جهة أخرى دفع بمالكي هذه الثروات بالتوجه الى مجالي الانتاج المادي في الاقتصاد الاقطاعي وهما الصناعات اليدوية والنشاط الزراعي باعتبارهما فرص مناسبة لاعادة استثمار هذه الثروات، وكان اسلوبهم في الدخول الى هذه الانشطة هو الاقراض اولاً ثم تملك وسائل الانتاج ثانياً ، بعدما ادخلوا تغييرات عميقة وجوهرية في العملية الانتاجية ، ومن ثم في علاقات الانتاج الاقطاعية.[1]وهذه التغيرات هي:

١- انشاء المشاغل اليدوية (المانيفاكتورات) .

ان الحرف اليدوية ذات النمو البطيء ، لم تعد طريقة الانتاج فيها تتلائم وحاجات كل من السوق الخارجية الواسعة التي اوجدتها الاكتشافات الجغرافية من ناحية والسوق الداخلية المتنامية والتي طورتها ظروف النهضة من ناحية أخرى.

انتهج التجار ومنذ أواخر القرن الخامس عشر اساليب جديدة مكنتهم من خلق بعض الانشطة الصناعية الجديدة لتغطي منتجاتها من الناحية الكمية والنوعية حاجة السوقين الداخلية والخارجية وتتجاوز بمواصفاتها الفنية والتمويلية قدرة رب الحرفة ، فكانت صناعات النسيج المتطورة ، والطباعة ، وصناعة الاسلحة ، والصناعات الدقيقة

(١) ƐƏŸĐĂŸNÎ ƷŸHăĐŸkŸHŸĐĂÙŸHÚl ĐĂÙŸHŸĐĂŸJÎ ŭƷkŸĐ ÚlŸĐDÙÙĂĐŸDÎ ţ GĂŸNlŸţŸHăĐÚ. Θ. ŏ HăĐŸH .Î Î -Î Î ə Î Î UÚÎ ƐĂŸHĐŸJ

والكمالية هي الانشطة الصناعية الجديدة التي تحمل تلك المواصفات المطلوبة ((فقد خرجت هذه الصناعات الجديدة عن نطاق النظام الطائفي بسبب حداثتها وطبيعتها الذاتية . . . أذ تحتاج الى رأسمال يتجاوز القدرة المالية لرب العمل العادي)) [1]، إلا أن دخول التجار الى هذا النشاط لم يتم دفعة واحدة وانما ابتدأ بالوساطة وانتهى بالملكية لوسائل الانتاج على وفق الخطوات التالية:[2]

أ- كان دور التاجر اولا مجرد وسيط .

ب- عندما تجاوز حجم الانتاج مستوى الطلب المحلي صار التاجر يقدم القروض من جهة وينقل الفائض الى اسواق بعيدة لايصل اليها غيره،فأصبح محتكراً لشراء هذا الفائض .

ج- عندما توسعت الحرف القديمة من جهة ونشأت صناعات جديدة من جهة أخرى تطلبت مواداً أولية يجلب اغلبها التجار من مناطق بعيدة سواء أكانت داخل أوروبا أو خارجها، وهكذا أصبح التاجر مورداً للمواد الاولية وصار الحرفيون اكثر تبعية له .

د- نشأت صناعات حرفية جديدة تجاوزت بمواصفاتها الفنية والتمويلية قدرة رب الحرفة ، فقام التاجر بامتلاك هذه الصناعات ، فتحول رب الحرفة وعماله الى اجراء لديه . وهكذا نشأت النواة الاولى للمؤسسات الرأسمالية والتي يمارس فيها العمال الأجراء عملاً يدوياً على أساس تقسيم العمل وهي المشاغل اليدوية أو ما تسمى (بالمانفاكتورات) .[3]

وهكذا ظهرت الطبقة العاملة المؤجرة لقوة عملها في القطاع الحرفي بفعل السلوك الذي مارسه التاجر في هذا النشاط ، فأوجد بذلك الشرطين الضروريين لنشوء الرأسمالية وهما تراكم رأس المال وظهور الطبقة العاملة وتفاعلهما في مؤسسة واحدة.

٢- انشاء المشروعات الزراعية الرأسمالية:

عندما ظهرت الاسواق الدورية في المدن الكبيرة واصبح يعرض فيها العديد من السلع المختلفة والنادرة وان النقود قد انتشر استخدامها في تسوية المبادلات بشكل واسع وخاصة في هذه الاسواق ، لم يعد الاقطاعي يجد في منتجات اقنانه او التزاماتهم العينية ما يخدم اوضاعه في هذه الظروف المستجدة. وانما صارت تلك الاسواق هي وجهته ، فأصبح الاقطاعي اكثر حاجة للنقود من حاجته الى تلك الالتزامات العينية التي يقدمها اليه أقنانه، وهكذا اصبحت تتحول الالتزامات الاقطاعية في أكثر الدول الاوروبية الى التزامات مالية واصبحت النقود هي الاساس الاقتصادي الذي ينظم العلاقة بين الاقطاعي وأقنانه في النشاط الزراعي.

( ) ... ǒ¤ ə ⌐ ł ăǯ ɦķɵ Ƨ/ Ǒǯ Ǯ‖ ỷΣǥỷɣǫ/ ƸăǯΣǛ .
( ) ... Ư ə ⌐ ł ăǯ ɦķɵ Ƨ/ ķǗ ǘ‖ ỷǮǥǗƸɦǒ ǮỷɦƘ/ ǮNƥǛɦǟ .
(¤) ... ơư ə ⌐ ł ăǯ ɦķɵ Ƨ Ǒǯɦ/ǫǑNǟǫɦYBǔ/ ƥǥƐ ķƸ ư .

في الاتجاه الاخر اصبح الفلاح يحتاج الى النقود ليسدد لسيده مابذمته من التزامات وان يوسع انتاجه الى الحد الذي يغطي به هذه الالتزامات من جهة ويوفر فائضاً مناسباً له ولعائلته ، فاحتاج الى القروض وكان التاجر مصدرها الوحيد.

أما الاقطاعي فإن دخله اصبح ثابت وان زيادة الثروات التي كانت تعني في نفس الوقت زيادة عرض النقود ، قد أدت الى ارتفاع مستوى الاسعار مما يعني انخفاض دخله الحقيقي ، فاضطره ذلك الى اللجوء الى التاجر للاقتراض لتغطية نفقاته المتزايدة .

وهكذا صار التاجر مقرضا للفلاح وسيده ، ومن هنا ابتدأ تدخل التاجر في النشاط الزراعي في ظل العلاقات الاقطاعية ، وهكذا ايضا اصبح الفلاح وسيده وانتاجهما اكثر ارتباطاً بالنشاط التجاري من حيث توفير القروض او تصريف المنتجات .

ان التاجر لم يتوقف عند هذا الحد بل تعداه الى ملكية الارض الزراعية عندما رأى فيها وسيلة جديدة مربحة لاستثمار ثرواته ويزيل كذلك من خلال ملكيتها ذلك الاحتقار الذي لحق به بسبب تقاضيه الربا يوم كان الربا عملاً مخالفاً للأخلاق . وقد قاد هؤلاء التجار من خلال هذه الملكية حركات التغيير الجذرية والتي أطاحت بأسس النظام الاقطاعي ، إلا أن هذه العمليات لم تتم دفعة واحدة وانما عبر الخطوات التالية : (١)

أ- تبديل الفرائض العينية الى فرائض نقدية.

ب- ربط الزراعة بالتجارة من خلال تحويل انتاج الفلاح الى انتاج سلعي.

ج- سقط كل من الفلاحين واسيادهم على السواء فريسة بيد التجار المرابين بسبب القروض الضخمة.

د- وعن طريق هذه القروض ملك التجار اراضي الفلاحين وأسيادهم على السواء تسديداً لتلك القروض التي عجزوا عن تسديدها ، وهكذا دخلت الزراعة في دائرة المشروعات الانتاجية الرأسمالية، (٢) مثلما دخلت الحرف الصناعية قبلها. لكن في بريطانيا حدث دخول الى القطاع الزراعي بشكل مغاير لما حدث في أقطار اوروبية أخرى من خلال عملية تاريخية سميت بحركة (التسييج) والتي نفذت عبر مجموعة من الاجراءات العنيفة بما فيها القوانين التعسفية ومنها عقوبة الاعدام ثم استبدلت الى السجن في بيوت العمل لاخضاع الفلاحين المتشردين الى نظام العمل بالاجرة ((ان جوهر هذه العملية هو تحويل الملكية الاقطاعية للارض الى ملكية رأسمالية من جهة وتحويل الفلاحين المستقلين الى عمال احرار أجراء منزوعي وسائل الانتاج مضطرين لتأجير انفسهم للرأسماليين)).(٣)

---

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

(٣) [illegible]

ان الاسباب المهمة لفاعلية الفكر الماركنتيلي في تلك الفترة التي بدأ ينتقل فيها المجتمع الاوروبي من النظام الاقطاعي المكتفي ذاتياً الى الاقتصاد النقدي والائتماني هي نظرتهم للأمة القومية والدولة المركزية القوية والقادرة وحدها على توحيد الاوزان والمقاييس والنقود والقوانيين على نطاق الأمة ، وتنظيم التجارة والصناعة ، وتشجيع الاحتكارات التجارية الكبرى ، وتوفير حوافز الاستثمار الرأسمالي ، وتوسيع السوق الرأسمالية بفضل السياسة الاستعمارية .

١- تغييرهم للموقف العام من طبقة التجارة واعتبارها الطبقة المنتجة والمفيدة لا لنفسها فقط ولكن للأمة وللدولة على السواء من خلال :

أ-تأكيدهم على زيادة النقود في التداول هي ضرورة اقتضاها توسع التجارة السريع.

ب- تأكيدهم على زيادة رصيد الدولة المعدني كان ضرورة اقتضتها الظروف الحربية للدول الناشئة.

ج- تأكيدهم على تدفق المعدن النفيس الى داخل البلاد من شأنه توسيع الاقتصاد السوقي ومن ثم تسهيل جباية الضرائب وتوسيع حجم الانتاج وزيادة الاسعار والارباح على السواء.

إلا أن تغير الوقائع الاقتصادية وظهور خبرات جديدة في التطبيق اظهرت تخلف الفكر الماركنتيلي وعدم مسايرته للأحداث ، بل تحول في النهاية الى عقبة تحول دون نمو النشاط الاقتصادي للأسباب التالية :

١- ظهور وانتشار المذهب الطبيعي والذي يقر بوجود نظام اقتصادي طبيعي تحكمه قوانين ازلية هي أرقى من تلك التي يضعها الانسان .

٢- ان نظريات اقتصادية جديدة أظهرت عكس ما يرى الماركنتيليون من مزايا في دخول المعدن النفيس ، حيث ربطت هذه النظريات بين كمية النقود ومستوى الاسعار وحركة الصادرات والواردات ، فزيادة النقود ترفع الاسعار في الداخل فتقل الصادرات وتزداد الواردات مما يعني اختلال ميزان المدفوعات والذي لايمكن اصلاحه الا بخروج المعدن النفيس .

٣- النظريات الجديدة ترى في التبادل التجاري بين الدول منافع مطلقة للطرفين المتبادلين عكس ما كان يرى الماركنتيليون من أن التبادل خسارة لطرف وربح لطرف آخر.

٤- تضاءلت أهمية الاعتماد على المعدن النفيس بسبب ظهور المؤسسات المصرفية التي تستخدم الاوراق النقدية في النظام الائتماني .

٥- اثبت الواقع الجديد أن (الثروة الحقيقية) هي (المكائن ، السلع، المواد الاولية) وليس المعدن النفيس.

٦- عندما ظهرت الوحدات الصناعية الرأسمالية (المانفاكتورات) حلت الصناعة محل التجارة كعنصر محرك للنشاط الاقتصادي .

٧- وهكذا تهيأت الظروف المناسبة لانتقال الرأسمالية الى مرحلة جديدة من مراحل تطورها ، فحلت الصناعة محل التجارة ، وحل المنظم محل التاجر ، فانتقل مركز الثقل في الطبقة الوسطى من فئة التجار الى طبقة الصناعيين . وهذا موضوع لبحث آخر إن شاء الله .

المصادر

١- أمين / سمير أمين / التطور اللامتكافيء ، ترجمة برهان غليون ، دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٥ .

٢- البيرماني ، خزعل البيرماني / (دكتور) التاريخ الاقتصادي ، الشركة الأهلية ، بغداد، الطبعة الاولى ، ١٩٦٨ .

٣- بابي / جان بابي / القوانين الاساسية للاقتصاد الرأسمالي ، ترجمة شريف حتاتة وآخرون ، بدون تاريخ .

٤- باران / بول باران / الاقتصاد السياسي للتنمية / ترجمة أحمد فؤاد بلبع / دار الحقيقة ، بيروت، الطبعة الثانية ، ١٩٧١ .

٥- سلمان / عبد الرسول سلمان / معالم الفكر الاقتصادي ، الشركة الاهلية ، بغداد ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٧.

٦- شقير / لبيب شقير (دكتور) / تاريخ الفكر الاقتصادي/ مطبعة جامعة بغداد / دار الحكمة للنشر / بدون تاريخ .

٧- عبد الشفيع / محمد عبد الشفيع / قضية التصنيع في اطار النظام الاقتصادي العالمي الجديد/دار الطباعة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة اولى ، ١٩٨١ .

٨- عبد الله / وعبد الكريم / أمين مصطفى عفيفي عبد الله/وأحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ أوروبا الاقتصادي / المطبعة العربية / الطبعة الثانية ، ١٩٥٤.

٩- غنيم/ احمد محمد غنيم / تطور الملكية الفردية / الدار القومية للطباعة والنشر/ بدون تاريخ .

١٠-كبه ، ابراهيم كبه / دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي / الجزء الاول / مطبعة الارشاد ، بغداد ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٠.

١١-كوكس/ اوليفر . س .كوكس/ الرأسمالية نظاماً، ترجمة ابراهيم كبه ، مطبعة العاني / بغداد، ١٩٧٢.

١٢- ماركس ، كارل ماركس / رأس المال – نقد الاقتصاد الرأسمالي / الجزء الثالث ، القسم الثاني ، ترجمة محمد عيتاني ، مكتبة المعارف ، بيروت ، بدون تاريخ .

١٣- ولعلو ، فتح الله ولعلو/ الاقتصاد السياسي-مدخل للدراسات الاقتصادية ، دار الحداثة ، بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٩٨١.

١٤- هيلبروتر ، روبرت . ل .هيلبروتر / كيف نصنع المجتمع الاقتصادي لتحقيق التنمية ، ترجمة راشد البراوي ، مكتبة الوعي العربي ، ١٩٧٧.